كيف نربي أنفسنا ؟

كان جرانت ألين الأديب الانجليزى يقول على سبيل التهكم بالمدارس : يجب أن نمنع المدارس من التدخل فى تربية أطفالنا .

وهو يعنى هنا ان المدارس لا يمكنها أن تربى الناس وأنها اذا حاولت ذلك لم تنجح. وان مكان التربية الحقيق هو البيت أو الشارع أو المجتمع. ولا يشك أحد الآن فى أن قدرة المدرسة فى التربية على إيجاد النزعات وتكوين الأخلاق والتوجيه الاجتماعى أو الفلسفى صغيرة، وأننا نصل على هذه الأشياء جميعها من بيئات أخرى غير المدرسة . وهى تتكون وتنمو معنا نمو الحياة .

ولكن حتى على فرض أن المدرسة تربى كما تعلم فان الناس ليسوا سواء فى الحصول على الفرص المدرسية أو الجامعية . فان منهم من يقتصر على التعليم الابتدائى . ومنهم من يصل الى الشهادة التوجيهية . وعدد الذين يحصلون على تعليم جامعى محدود .

وتكاد التربية تكون عملا فسيولوجيا . فان الجسم لا يطلب الطعام إلا عند الجوع . ولا يطلب الماء إلا عند العطش . وهو يأخذ من الماء والطعام بالقدر الذى يحتاج . وفى الوقت الذى يحس فيه عاطفتى الجوع والعطش . وهو يختار ما يحب ويأنف مما يكره . وكذلك الشأن فى التربية. فإن الإنسان متى جاز طور الطفولة أو الصبا يعرف كفاءاته و بواعثه و يدرك حاجاته الثقافية و يطلبها بالقدر الذى يمكنه أن يهضمه و يمثله. وكما أن الطعام يستحيل شيئا آخر فى الجسم غير ما كان عليه قبل أن يهضم و يمثل، كذلك المعارف تمتزج بنفسيتنا وتحرك نشاطنا وتبعث طموحنا . ويختلف تأثيرها من شخص الى آخر لاختلاف النفسية عند كل منها . ومن هنا قولنا أن التعلم عمل فسيولوجى لأن له دورة فى النفس كما أن للطعام دورة فى الجسم . ولذلك خير من يعلم الشاب هو الشاب نفسه. لأنه حين يشتهى الوقوف على موضوع ما فانه إنما يشتهيه لحاجة نفسية . وهذه الحاجة هى بمثابة الجوع الذى يهيئ للهضم والتمثيل .

وأعظم ما يعاب على المدرسة أنها تعلمنا المواد وتعطينا المعارف ولكنها لا تعلمنا الطريقة التى يمكننا أن نحصل بها على هذه المواد والمعارف . وصحيح ان المدارس " النهضة " التى اتبعت طريقة "المشروع" وغيره من الطرق قد انتبهت الى هذا الركن الأساسى من التربية وشرعت تعالجه . ولكن ، الى أن تعم المدارس النهضة ، سيبقى شبابنا وهم قاصرون مقصرون فى المدارس. وسيبقى فضل التربية الذاتية واضحا بارزا على التربية المدرسية لهذا السبب .

وبواعث التربية الذاتية تختلف . فهي عند أحد الشبان حاجة يحسها بشأن العمل الذي يمارس من حيث إنه يريد الاستزادة أو التكمل فيه . وعند غيره هواية قد شغلت ذهنه وهي تتفتح أمامه بضروب من الارتياد الذهني . وعند آخر قد يكون الباعث قراءة الجريدة اليومية والرغبة في الوقوف على العوامل التي تختبئ وراء السياسة .

ولكل شاب فترة في حياته تقع بين السابعة عشر والخامسة والعشرين يحس فيها رغبة حارة للاطلاع كأنها الحمى . وقد يسوء استغلال هذه الفترة لأن الأبوين يكفان ابنهما مثلا عن هذا الاطلاع ويميتان فيه هذه اليقظة . ولكن الأغلب ان الشاب يجد في هذه السنين بواعث قوية تطلق ذهنه على الرغم من جميع القيود للتعرف الى كثير من المشكلات الدينية والفلسفية والاجتماعية والاقتصادية . وقد يكون لهذه الحمى الثقافية علاقة فسيولوجية بتطور النمو في الشاب . وانتقاله من طور الصبا إلى طور الشباب وما يؤدي اليه هذا الانتقال من حيرة تبعث على التطلع الجنسي أولا ثم يتسع هذا التطلع الى ان يصير بعد ذلك ثقافيا .

وفي هذه الفترة يتعود الشاب القراءة حتى تصير عنده هواية يشغف بها . وهو في هذه الهواية يجد من النظريات والأفكار ما يعد محوريا أو بذريا في النمو الذهني . فان المعارف ليست سواء . فان بعضها يقع في التربة الذهنية جامدا لا يلقح . وبعضها يجد عندنا خصوبة فينمو ويمتزج ويتفرع إذ هو بمثابة البذرة الصالحة للنمو . وبتوالي السنين واصطدامنا بالحوادث التي تتفاعل اذهاننا بها تنتصب عندنا طائفة من الأفكار نعتنقها كأنها المبادئ أو العقائد أو المذاهب . ونحن نقرأ لكي نتوسع فيها وندافع عنها . فتصير لنا بمثابة الحافز الذي يحفزنا على الاستزادة من الدرس والتوسع فيه .

وكل قارئ تقريبا سيجد هذه الأفكار المحورية أو البذرية تنشأ ثم تنمو في ذهنه . وعليه عندئذ أن يرعاها بالتوسع في القراءة المنظمة وبالدرس المتواصل . وقد عرفنا كثيرين من الشبان كان السبب لتعمقهم في الانجليزية أو الفرنسية رغبة حارة في استقصاء أحد الموضوعات العلمية ، كما عرفنا شبانا آخرين كانت التربية المدرسية تنقصهم . ولكن حمى الاطلاع أصابتهم حوالي الثامنة عشر من العمر فاندفعوا في تيارها وحصلوا من الثقافة على ما لا يمكن أي تعليم مدرسي أن يزود أحدا من التلاميذ به . وعرفنا آخرين أصبحت التربية الذاتية عندهم عادة فصارت لهم في بيوتهم مكتبات كهتهم عن التعرف الى المفاسد التي يقع فيها زملاؤهم من الشبان الذين لم يرووا للقراءة .

ولكن كيف يمكن الشاب أن يعمد الى تثقيف نفسه اذا كان قد ساء حظه فلم يتعلم التعليم الكافي في المدرسة ثم لم يجد في نفسه تلك الحمى التي أشرنا اليها أو وجدها ثم لم يستطع الانتفاع بها لظروف مختلفة ؟

وللجواب على السؤال نقول إن مثل هذا الشاب قليل . لأن هـذه الحمى الثقافية تكاد تكون طبيعية والمحموم بها يتغلب على جميع العوائق . ولكن لنفرض ان شابا قد بلغ العشرين أو الخامسة والعشرين يجب أن يشرع فى برنامج ثقافى فكيف يفعل ؟

يجب أن يعمد قبل كل شيء الى الجريدة اليومية يقرأها فى الصبـاح لكى ينبه ذهنه ويتصل بالمجتمع العالى ويلقى عليه نظرة عامة . وفى الجريدة مشروعات وأخبار وحوادث يجب أن تبعث التفكير عند الإنسان العـادى . وبالطبع تختلف الجرائد فى النزعة الثقـافية ومقدار عنايتها بالفنون والعلوم . ولـكن القارئ لابد مهتد الى ما يلائمه .

ثم يجب عليه أن يتدرج من الجرائد اليومية الى المجلة الراقية ثم الى الكتاب . ونحن نقول "يجب عليه" ولكن الحقيقة ان الرغبة ستدفعه فى نشاط وحرارة إلى اختيار المجلات والكتب متطوعا بلا إجبار . وبتى فعل ذلك فانه يكون عندئذ قد وصل الى " الطريق المـلوكى " للثقافة . وذلك أنه سيعين لنفسه غاية ثقافية كأنها البوصلة يتجه اليها وينشد المعارف ويجمعها للوصول اليها . ولمـا كانت الثقافة فسيولوجية فى أسلوبها فان الرجل المثقف سيأخذ منهـا انواعا ومقادير تأتلف ومزاجه . ولذلك كثيرا ما ينسلخ الإنسان من ثوبه الثقافى ويستحيل شخصا آخر كما تنسلخ العذراء من الفيلجة وتصير حشرة كاملة .

والرجل المثقف يمتاز بالاختصاص . فهو يهوى موضوعا معينا ينفق عليه من وقته وماله . وهذا الموضوع يكون له بمثابة المحور الذى يجمع اليه شتى المعارف تنظم وتنمو وتتفرع . فهو يبدأ فى تعميم يقرأ هنا وهناك كأنه يتسكع أو يتنزه ولكنه ينتهى إلى تخصيص فيحصر معظم قراءته فى موضوع معين يتصل بحرفته أو هوايته . وعندئذ تنتظم دراسته لأن التخصيص يجعله يتعمق ويأنف من المعارف السطحية . وكل شاب مثقف يجب أن يتعمق فى فرع معين من المعـارف بحيث يحاول أن يعرف كليـاته وجزئياته كما يعرف شيئا ما عن سائر المعارف .

وفى عصرنا الحاضر من المشكلات ما يجعل كل إنسان محتاجا الى الثقـافة ان لم يكن لحلها فلا أقل من تفهمها . ومن هنا قيمة التربية النفسية والنظر الى شؤون العـالم بالفهم والدرس والرغبة فى التعرف والاطلاع .